قراءة في كتاب التحريش لضرار بن عمرو الغطفاني (200 ه 815م) حققه د. حسين خانصو و د. محمد كسكين *

ليس لدينا معلومات كثيرة عن حياة ضرار بن عمرو الغطفاني، غير أنه كان من المعتزلة ثم انشق عنهم، حتى أُطلق على تابعيه فرقة الضرارية من قبل بعض مترجميه، فغير اسمه ونُتفًا قليلة عنه لا يوجد شيء آخر، أما كتابه "التحريش" فقد حققه الأستاذان الدكتور حسين خانصو والدكتور محمد كسكين، ونشرته دار ابن حزم ببيروت سنة 1435 ه 2014م، وقد حققاه على نسخة وحيدة فريدة من اليمن السَّعيد في إحدى المكتبات الخاصة كما ذكرا في المقدمة ثم طبع الكتاب طبعة أخرى مرفقة بالترجمة التركية، وقد كتب على طرتها تحقيق الدكتور حسين خانصو وترجمة الدكتور محمد كسكين طبع بتركيا سنة 2014م. (1)

والكتاب بمقدمة المحققين يقع في 153 صفحة، قدم المحققان للكتاب بمقدمة تكلما فيه عن حياة ضرار بن عمرو بشكل مختصر، ثم تكلما على نسبة الكتاب إلى ضرار، وما فعلاه في الكتاب وعنوان الكتاب ونبذة عن آراء ضرار وتقدمة مختصرة عن الكتاب، لكن هنا ملاحظة خفيفة قبل البدء؛ فقد كتب المحققان على طرة الكتاب "تأليف ضرار بن عمرو الغطفاني (200ه 815م)" والقارئ لهذا التاريخ يظن للوهلة الأولى أن عمرو قد توفي في هذا الزمن جزمًا وقطعًا، لكن وفاته مختلف فيها كما ذكرا ذلك في المقدمة؛ فالذهبي رجَّح وفاته في زمن الرشيد والصفدي رجَّح وفاته في حدود 230 ه، وقد قالا: "ونجمع بين القولين ويمكن أن نقول توفي في حدود المائتين" ص9، وبتسليم صحة ترجيحهما فإن الأفضل أن يكتب في طرة الكتاب: "توفي في حدود 200 هجرية" والأسلم منه: "توفي ما بين القرنين الثاني والثالث"، هكذا دون جزم، لأنه لا مرجح لجزمهما!

* Dirar b. Amr el-Ğatafani, *Kitabu't-Tahriş*, Çev. Hüseyin Hansu, Mehmet Keskin, İstanbul: Litera Yayıncılık, 2014.

أما عن الكتاب نفسه؛ فالبدء من اسمه خيرُ مدخلٍ لفهم محتواه فاسم الكتاب "التحريش"؛ وهو من مادة حرش، ومادة "حرش" في العربية تدور حول الإيقاع بين الناس بالفتنة والشر وبث العداوة والبغضاء بين الخلق، يقول ابن منظور في اللسان:"الحرش والتَحْرِيش: إِغراؤُك الإِنسانَ والأَسد ليقع بقِرْنِه، وحرَّش بينهم: أفسد وأغرى بعضهم ببعض، قال الجوهري: التحريش الإغراء بين القوم وكذلك بين الكلاب، وفي الحديث أنه نهى عن التحريش بين البهائم، هو الإغراء وتهييج بعضها على بعض كما يفعل بين الجمال والكباش والديوك وغيرها، ومنه الحديث: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم" أي في حملهم على الفتن والحروب". (2)

وهذا ما قصده ضرار بتسمية كتابه التحريش، ولعله أخذ التسمية من الحديث السابق ذكره، حيث ذكر هذا الحديث في مقدمة الكتاب أيضا وهو يتحدث عن فقيه السوء قائلا: "ورقا لهم الحديث المعروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن التحريش بين البهائم، ثم حرّش وهو عريان غير مستتر الأمة بعضها على بعض". ص 41، يعني بذلك فقيه السوء وأن هذا الحديث قد وقع عليهم.

وقد ذكر فعل "حرش" في كتابه مرة أخرى منها قوله في ختام مسألة "الإيمان والعمل": "وقال الآخر: الإيمان ما جاء في أول الحديث، والإسلام ما جاء في آخر الحديث من أقام الصلاة وآتى الزكاة في نحو هذا مما يحرِّش بعضهم على بعض." ص 81، كذلك في ختام كتابه يقول: "فلما وقع البلاء بين الأمة وحرّش بعضهم على بعض". ص139.

أما أسلوب ضرار في كتابه فقد تقلد أسلوب الراوي للأحداث؛ فهو يقصُّ المسائل التي وقع الخلاف فيها بين أهل القبلة لا أكثر، ولكنه تقلد ذلك على سبيل الاعتراض لا على سبيل الرضا، فتمثَّل نفسه على قنطرةٍ بين طرفين، أو حرص أن يظهر نفسه مظهر المحايد الذي لا طرف له فوقف على أرضٍ وسطى وظل يحكي في كل مسألة ما قاله الفريقان فيها، وهو في غالب ذلك ناقم على كلا الطرفين، ومُبينٌ خطأ كلا الطرفين، ومُعيبٌ عليهم وقوعهم في مثل هذه الأخطاء التي وصلت إلى تكفير بعضهم

(2) ابن منظور المصري، (المتوفى 711 هـ 1311م)، لسان العرب، مادة حرش.

بعضًا وتقتيل بعضهم بعضًا، فسالت الدماء واستحلت الحرمات، وكان السبب في كل هذا سوء استعمال الروايات التي تروى بين الفرق.

على أن السبب كما يبين ضرار مومئًا وليس موضحا بذلك لا يقتصر على الروايات فقط، إنما الطمع في السلطة والرياسة والجاه من قبل الفقهاء، والتقرب إلى السلاطين وإغراء السلاطين لهم ووقعهم في هذا الشَّرَك عن علمٍ ودرايةٍ وسوء قصدٍ، يستغلون في ذلك الروايات والمقالات أسوأ استغلال، فالمحرّش هم الفقهاء، والفقيه هو بطل القصة السيء الذي ذكره ضرار مرتين في الكتاب ثم ذكره في كل سؤال لكنه اكتفى بالإشارة إليه بضمير الغائب.

وقد ابتدأ ضرار بن عمرو كتابه بالبدايات المعتادة في الكتب والتآليف القديمة؛ وهي أن بعض الأشخاص مما لم يسمهم سأله "أمر الأمة؛ كيف اختلفت ومن أين انقطع ائتلافها وتشتت طرقها؟" ص 31، ثم شرع في بيان الإجابة قائلا: "وأنا مبين لك ذلك إن شاء الله"، ثم بدأ بذكر أول الأمر أو بدء الخلق؛ حيث إن الله خلق هذا الخلق وأمرهم بعبادته وحذرهم من الشيطان، والشيطان قد أخذ عهدًا على نفسه أن يضل بني آدم يوقع بينهم، وفي المقدمة أيضا يذكر المؤلف أمر الله عزوجل باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، كذلك نهيه وتحذيره الشديد من الفرقة والاختلاف" وما قص الله من نبأ آدم عليه السلام فمن دونه من الرسل وحذرهم أن يختلفوا، وأمرهم بالموافقة والائتلاف، وأخبرهم أنهم إن اختلفوا وذهبت ريحهم..." ص 33، ثم شرع في بيان تحريم الفرقة وخطرها على الأمة وذكر في ذلك ما يقرب من 15 حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم منها ما يخبر أن بعد موته ستحدث فرقة شديدة بين المسلمين وأن الكذب سيفشو وأن الشياطين ستتملك كثيرا من المسلمين تغريهم وتضلهم، استدل المؤلف بهذه الأحاديث على حرمة الاختلاف والتنازع بين المسلمين.

بعد هذه التوطئة بدأ الكتاب في بيان الاختلافات التي كانت في عصر ضرار، لم يكن ضرار معنيا برصد هذه الاختلافات وإحصائها وبيانها وبيان ما هي حق في نظره وباطل، إنما كانت هذه الاختلافات مجرد أمثلة فقط لما حدث بين المسلمين للأسباب السالفة الذكر وهو سوء استعمال الروايات

والطمع في الرياسة والجاه والسلطان وإغراء السلاطين، ولم يذكر هذه الأسباب في بداية الكتاب وإنما ذكرها في سبيل العرض والوصف للفقيه أو للطوائف التي وقعت في شراك الفتنة، لكنه في مقدمة الكتاب ذكر وقد سماه سببًا الاختلاف بين الصحابة وما وقع بين المسلمين آنذاك في أمر الصحابة المختلفين، والأقوال المتفرقة، ثم ختم بعد عرض تلك المسألة قائلا: "فهذا أول سبب ما اختلف فيه أهل الصلاة ومنه تشعبوا" ص 41.

وهنا يظهر أحد محاور الكتاب الأساسية بطل القصة، فقيه السوء الذي يضلل الناس عن عمد وسوء قصد باستغلال الروايات والأحاديث لهواه ومنفعته، فبعد ما وقع هذا الاختلاف ماذا يفعل المسلمون؟ ذهبوا إلى ذلك الفقيه كي يفتيهم في هذه المسألة، وضرار يشبه هذا الفقيه بسامري موسى وبولس عيسى، وكلا الرجلين أفسدا ديانتيهما وأضل الناس بكلامهما وفتواهما.

أما عن المسائل التي تناولها ضرار في كتابه؛ فقد تناولها في من خلال بيانه الأمثلة ولم يعرضها على أنها مسائل تحتاج إلى مناقشة وتفصيل بين الآراء والفرق والمذاهب وإنما عرضها عرضا ملخصا، ذكر ضرار في كتابه ما يقارب 45 مسألة ما بين الفقه والكلام والتزكية وغيرها من الموضوعات، وطريقته في عرض هذه المسائل أن يذكر كل مسألة في صورة أن الناس ذهبوا إلى ذلك الفقيه ليسألوه عنها، وهؤلاء الناس تتنوع أسئلتهم حسب أفكارهم ومعتقداتهم وما وقعوا فيه، فالخوارج يسألون عن مرتكب الكبيرة، والفقراء يسألون عن الفقر، والسلاطين يسألون عما يخصهم من سياسة العامة، والأغنياء يسألون عن الغنى والترف، حتى العصاة من اللواطين والزناة والفجار من شراب الخمر وخراب الأرض يسألون عن أعمالهم، وهكذا تأتي كل جماعة بقضيتها التي تشغلها وتعرضها على الفقيه فيجيب بما يريح ويرضي هذه الجماعة، والسؤال في بداية كل مسألة يكون هكذا مثلا: "ثم جاءه الخوارج فسألوه عن دينهم ووصفوا له وأخبروه بما روى الناس عنهم من الاستحلال لدمائهم من الملوك وأتباعهم وأنصارهم عليه؟" ص 61، أو يقول قولا أشد من هذا مداهنا به الطائفة المستفتية له، مغلِظًا القول في الطائفة الأخرى متهما إياهم بالبدعة والمخالفة للطريق الحق: "احذروهم فإنهم أهل البدع والضلال،

واكتبوا..." ص 46. أو "احذروهم فإنهم أهل البدع، واكتبوا..." ص 49، "اتقوهم فإنهم أهل البدع ولو كان ما يقولون حقًّا ذهبت الدنيا والدين جميعا..." ص 59، هكذا فإن إجابات الفقيه التي حرص ضرار على تكرارها كما هي في بداية كل سؤال كانت على طريقة واحدة لكل الطوائف المستفتية له، التحذير من الطائفة المعاكسة لهم، ورميهم بالبدعة والضلال ومخالفتهم لطريق الحق والكتاب الكريم.

وحرص ضرار على تكرار تلك العبارات ليؤكِّد على إظهار هذا الفقيه في صورة المنافق المداهن الذي لا يرعوي أن يفتي بما يخالف الدين والضمير، بل هو يحفظ هذه الروايات ويكررها ويرويها على مسامع الناس، وقد بلغ من الجهل واستمراء قول الباطل ما بلغ، فكلامه هو نفسه في كل مقدمة، فلا يستنكف أن يكرر هذه المقدمة في كل جواب، هذا بعكس الأسئلة التي جاءت مختلفة الألفاظ والصياغة ذلك لتعدد الطوائف والفرق، وتعدد همومهم وقضاياهم، ولأنهم يعبرون عن تلك القضايا وهذه الهموم بجمل تناسب أحوالهم وأفكارهم ومعتقداتهم.

وبعدما يذكر الفقيه هذا الجواب المتكرر يعمد إلى ذكر الروايات والأخبار التي تؤيد تلك الطائفة المستفتية وقد توسع ضرار على لسان الفقيه جدًّا في ذكرها، وغرض ضرار من هذا التوسع الشديد في ذكر الروايات والأخبار هو بيان اضطرابها وتناقض بعضها بعضًا، وفي نهاية جواب الفقيه يختم ضرار بخاتمة تكاد تكون متكررة أيضا يبين بها الطائفة التي اعتنقت تلك الروايات بسبب فقيه السوء هذا، وكيف أنهم "رضوا ذلك وقبلوه واحتجوا به وصاروا خوارج ودانوا بذلك" ص 53، أو يقول: "وفي نحو هذا من الحديث فقبلوه وأظهروا التدين به وتقربوا إلى السلطان، وأهل الجهل صاروا بهذه الأحاديث صمتية وجلسية وحشوية ومتزمتين" ص 87، أو يقول ضرار في وسط إجابة الفقيه قاطعًا حديثه ومتدخلا بكلامه هو: "وتأولوا عليه ودانوا به وكفروا من خالفهم من أهل القبلة وقتلوهم عليه" ص 96، وبالنظر في طول الكتاب؛ فإن ضرار ذكر كلمة "الفقيه" هكذا مرات معدودة منها في أول الكتاب حينما فزع إليه الناس وسألوه، وهو أول سؤال ذكره ضرار على المستفتين الذين يختلفون باختلاف قضاياهم والذين يهرعون أيضًا إلى هذا الفقيه، وبعدما ذكره في أول سؤال، تابع ضرب الأمثلة

وذكره بضمير الغائب العائد على أول سؤال، فيقول: "ثم جاءه" والتي كررها في جميع الأسئلة تقريبا، والسمة الأولى التي تتبادر إلى الذهن بعد قراءة الكتاب هو أن ذلك الفقيه سيء الديانة ليس لديه ورع ولا خوف من الفتيا، فهو لا يمتنع أن يقول لا أدري أو الله أعلم ونحوه من الكلمات التي من الممكن أن تمنعه من الفتنة، لم يقل ذلك بل سارع إلى رضاء مستفتيه فيفتيهم بما يوافق هواهم ويسعدهم ويفرحهم ويرفع عنهم الشعور بالذنب والجريمة، والسمة الثانية: إن هذا الفقيه بغيته الجاه والمال والرياسة ليس أكثر، فقد دعى السلطان الفقيه وسأله: "يا فقيه ما تقول في الاستعانة بالفجار والضلال فإن أهل الدين ضعفاء لا يجترؤون على الإقدام؟، فقال: اكتبوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليؤيد الدين بالرجل الكافر، أو قال الفاجر، وبقوم لا خلاق لهم"، ص 139، والسمة الثالثة: يستخدم الروايات والأحاديث لصالحه، فهو حافظ جيد للأحاديث والروايات ويرويها بكثرة شديدة كما جاء على لسان ضرار، لكنه يستخدمها للمنفعة الخاصة وكسب الجاه والمال، والسمة الرابعة: النفاق وهي السمة البارزة في الكتاب، وقد أظهرها ضرار ببراعة حينما ذكر مسائل الكتاب واحدة تلو الأخرى، وذكر في كل مسألة رأي الفريقين، وفي كل مرة يفتي الفقيه بفتوى عكس الأخرى التي يفتيها في المرة التي تليها.

لكن هل كان ضرار يعني أحدًا معينًا بالفقيه، أم كان يعني الفقيه بشكلٍ عام، لا سيما وقد نعى على كل الفرق، فكل فرقةٍ لها فقيهها الذي يزين لها السوء، ويبدو أن ضرار قد ألف هذا الكتاب في نهاية حياته؛ فطريقة ضرار في الكتاب قريبة من الحطِّ على كل الفرق بما فيها المعتزلة[3] التي ينسبه كثيرٌ من المؤرخين إليها، فالكتاب قد يعتبر بمثابة حصيلة تجربةٍ مُرّةٍ مرَّ بها ضرار خلال حياته.

ورغم أن ضرار قد ذكر مرارًا في كتابه أن سبب هذا التحريش هو سوء استعمال الروايات من قبل أهل السوء، فإن موقف ضرار نفسه من رواية الحديث لم يكن موقفًا عدائيا بل على العكس من ذلك فقد ذكر ضرار بن عمرو في كتابه التحريش ما يقرب من 311 حديثًا غالبها لبيان سوء استعمالها

(3) ولعل ذلك يفسر الجفوة الظاهرة في كلام المعتزلة عنه، فقد انفرد بفرقة وحده كما سبق الإشارة إليه، فيبدو أن النقمة لم تكن من أهل الاعتزال وحدهم على ضرار بن عمرو، بل من ضرار نفسه أيضا على المعتزلة كما هو ظاهر في كتابه.

من قبل الفرق الإسلامية المختلفة، أو من قبل فقيه السوء، وفي كل مرة يذكر بباء السببية أو غيرها من الأدوات صراحةً وكنايةً أن سوء استعمال هذه الروايات فرّقت الأمة وغرّت الناس والسلاطين وكانت أداة لطمع الفقهاء والسلاطين ونفاقهم، وراحة لكل من يأتي من المستفتين يريدون أن يسمعوا ما وافق هواهم فينتقوه من الروايات، هكذا يظهر موقف ضرار، لكن ضرار نفسه استشهد بهذه الروايات والأحاديث في مقدمة كتابه، فاستشهد بما يقرب 15 حديثًا في المقدمة تبين اختلاف الأمم وتفرقهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم كي يؤيد رأيه، كما ذكر بجانبها آيات من القرآن الكريم، لكن الجلي في ذلك أن هذه الأحاديث عامة الدلالة وليست في مسألة خاصة، وإن كانت مسألة افتراق الأمة مسألة بعينها إلا أنها وصف لحالة عامة بعد ممات الرسول الكريم من علامات الساعة وغيرها، والمقصود أن مثل هذه الأحاديث لا يختلف على معناها اثنان من أي فرقة كانت، لذا قد يكون هذا مبررًا لاستشهاد ضرار لها.

إضافة إلى ما سبق يمكن القول بأن استشهاد ضرار لمثل هذه الأحاديث يدل دلالة واضحة على أن ضرار لم ينكر الأحاديث لا متنا ولا سندًا، فهو ليس من أصحاب الحديث أصلا، وذكره للأحاديث بطريقته هذه الخالية من السند أو من طريقة المحدثين تدل على قلة بضاعته في هذا الفن، لكن مجددًا ذكره واستشهاده لمثل هذه الأحاديث يدل على إقراره بالحديث وعدم إنكاره لها، وإن أنكر بعضها في وسط الكتاب، وهو محقٌّ في ذلك لنكارة الحديث الفادحة وتضاده الظاهر مع صريح الدين، ويمكن ذكر مثال على ذلك عند ذكره حديث "يقفون في الموقف يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة فتقوم على رؤسهم مقدار قاب رمح فيلحقهم البلايا بل تتواهب فيعفو بعضهم عن بعض، فيقول الله: فأنا أرحم الراحمين فقد غفرت لكم يا أهل الجمع على ما كان فيكم، فتخرّب جهنم ويدخلون الجنة جميعا".

عقب ضرار على هذا الحديث قائلا: "وهذا الحديث أعظم فرية على الله وأشد له تكذيبا من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، واتخذ الله ولدًا وعزير ابن الله، ومن شك فيه إنه كفر بالله فهو كافر

ومشرك، آمنا بالله ووعده ووعيده، وكفرنا بهذا الحديث وشبهه".[4]، ومثال آخر على ذلك أيضًا ما ذكره ص 50 حينما ذكر الخلاف في علي والأحاديث التي رويت في فضله من صادق وكاذب قال في نهايتها: "ثم تاب عمار بن ياسر وحذيفة زمان عثمان، وأن أبا بكر وعمر ظلما وضربا فاطمة بنت رسول الله حتى ألقت جنينا، وفي نحو هذا من الحديث الضال المضل المفتعل، فقبله قوم ودانوا إلى ما به وشهدوا على من لم يشهد شهادتهم...".

وعلى أية حالٍ فإن هذا الكتاب ولعل هذا يؤكد صحة نسبة الكتاب إلى مؤلفه أثر في كثير من المعتزلة فيما بعد ضرار، فقد نسج غير واحدٍ منهم على منوال هذا الكتاب ما يعيب الروايات وأهل الحديث وعدم تعقلهم لهذه الروايات وغيرها، منهم إبراهيم بن سيار النظام في كتاب النكث، والجاحظ في كتاب الأخبار[5]، وغيرهما.

وقد ذكر ضرار أسماء كثيرٍ من الفرق التي كانت في عصره كأهل السنة والجماعة والحشو والشكاك والجلسية والمعتزلة والصفرية والخوارج والعوام، وهذا يبرز أهميته حين النظر في تاريخ الفرق وأسمائها، وكان ينبغي ذكر نُتفا من هذا في تحقيق الكتاب، لا سيما في التعليق على بعض الأسماء غير المنتشرة.

وقد بذل المحققان في تحقيق النص جهدًا لا بأس به، لا سيما أن الكتاب ظل عمرًا حبيس الخزائن فأخرجاه للنور وأظهرا له العناية البالغة؛ لكن طبيعة الكتاب الممتلئة بالأحاديث قد تكون أحرجت المحققَين، وجعلتهما في موضع لا يُحسد عليه، فالكتاب فيه ما يزيد عن الثلاثمائة حديث، وقد أخذ المحققان على عاتقيهما تخريج هذه الأحاديث من المصادر قدر الاستطاعة، وهاهنا كلمة من المناسب كتابتها عن التحقيق وعلاقته بتخريج الأحاديث؛ فقد انتشر مؤخرًا وأدخل بشكل تعسّفي الاعتناء العناية البالغة بتخريج الأحاديث وبيان درجتها من الصحة والضعف، والتزام كثير من المحققين

(4) كتاب التحريش، ص 70.

(5) انظر مقدمة المحققين كتاب التحريش ص 22.

ذلك التزامًا ظاهر فيه التعسف، والحق أن هذا الصنيع لا بأس به، ومن أوائل من شق هذا الطريق وسبره شيخ المحققين أحمد شاكر وجيله وأقرانه، لكن التزام هذا في جميع المخطوطات المراد تحقيقها فيه خلط كبير، بل قد اختصر بعضهم تحقيق الكتاب في تخريج أحاديثه، وخرج البعض الآخر عن الجادة فلم ينظر إلى مخطوطٍ ولا إلى أصل بل قصد إلى أحاديث الكتاب وخرجها من مظانها ثم كتب على طرّة الكتاب تحقيق فلان، ولا شك أن هذا ادعاء خالٍ من المنهجية.

والتحقيق الغاية الأصلية منه هو إظهار النص كما كتبه المؤلف، أو كما أراده في آخر حياته، ومحاولة المقاربة إلى ذلك ما اُستطيع إليه سبيلا، فهذا هو الهدف الذي لابد من المحقق أن يضعه لنفسه أولا ويسير عليه، ويكون ذلك بالطرق المعروفة عند أهل الفن من جمع النصوص وغيرها، أما التعليقات والتخريجات فهي مما تختلف من فنٍّ إلى فنٍّ ومن كتابٍ إلى كتاب.

فإذا ما عدنا إلى كتابنا التحريش فالكتاب مؤلف في خلال القرن الثالث، يعني في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام، فهو مصدر وحده، وهدف ضرار من الكتاب هو بيان تفرق الأمة واختلافها بعد موت نبيها بسبب استغلال هذه الروايات لصالح الأهواء، وقد سرد كمية كبيرة من الأحاديث ليبرهن أن بعضها يُستخدم عمدًا من قبل فقهاء السوء للتخليط على الناس والإيقاع بينهم بالفتنة ، وما فعله المحققان بالتزام تخريج كل الأحاديث الواردة في الكتاب أراه قد جانب الصواب، لأن هذا الصنيع أدّى في النهاية إلى تحويل الكتاب من كتاب في علم الكلام إلى كتاب في علم الحديث.

ثانيا: إن الكتاب في ذاته يعتبر مصدر كما سبق بيانه فتخريج الأحاديث في الغالب يكون بإحالة المتأخر على المتقدم وليس العكس؛ فليس مناسبًا أن يذكر في الهوامش مصادر أتت بعد ضرار ويكون هذا هو التخريج.

ثالثا: كان يمكن في المقدمة البيان بأن ضرارًا كما هو معروف ليس من أهل الحديث، أو لم يظهر الاعتناء الجيد لما أورده في كتابه من أحاديث، فأوردها دون إسناد أو إحالة.

وأخيرًا فإن خصوصية الكتاب واعتباره أحد المصادر المهمة لدينا تجعلنا نبذل جهدًا أكبر من ذلك، ولا بأس من إيراد بعض من الهنات التي وقع فيها محققا الكتاب.

ومن ذلك مثلا في الكتاب ما ورد صفحة 75 من قول ضرار بن عمرو في مسألة التكفير والقوم الذي جاؤوه وسألوه عن اتهام القوم بالشرك والكفر واستحلال دمائهم وأموالهم ونحوه: "فقالت طائفة من مرجئة أهل الشام وهم الغيلانية: إن الخلق كلهم: إبليس وتبعه، والملائكة والنبيون عليهم السلام وجميع المؤمنين في معرفة الله أنه خالق ورب ليس بدين، ولا مما كلفه الله العباد ولا من أعمالهم ولا من خلقتهم، وإنما الخلق جميعا مفطورون، وذو **ألهم** يحيون ويموتون"، والجملة الأخيرة كما ترى ليس لها معنى يستقيم في العربية فإما أن هناك خطأ من المحقق فقرأ الكلمة التي في الجملة خطأ، وإما أن يكون هناك خطأ من الناسخ وعندئذ لابد من تنويه من قبل المحققين بالهامش يبينون فيه أن هذا ورد بالأصل! ويجتهدوا في مقاربة المعنى.

ومن ذلك أيضًا ما ورد صفحة 60: "وقال لهم اعلموا أن من **يتولب** عليه بالمعاصي والفواحش في نفسه وأهله وحرمه والمؤمنات فحلت..." ولا شك أن الكلمة ليس صوابها هذا فلعلها "يتولى" ويرجع في هذا إلى المخطوط.

ومن الأخطاء التي لا نعرف من الناسخ أم من المحقق؟ ما ورد في في قول ضرار: "فقبل ذلك ودانوا به وهم الحشو والمتزمتين بالرواية". ص 108؛ كذا "المتزمتين" بإثبات الياء ولا وجه هنا لنصبها أو جَرّها، فصوابه "والمتزمتون بالرواية" بإثبات الواو على الرفع، فإن كان هذا من الناسخ أو المؤلف لزم من المحققين التنويه وإن كان من المحقق فهو خطأ أيضًا!

ومن الحواشي التي وردت مضطربة ما ورد في تعريف الشاكة أو الشكية أو الشاكون وقد قال المحققان في الهامش: "هم من يشكون في إيمانهم من المرجئة، وقيل: من مشبهة الشيعة الذين لا يسمون فاعل الطاعات مطيعا ولا فاعل المعاصي عاصيا لاحتمال ثبوت فاعل المعاصي على التوبة". ص 73.

كذا قالا في الهامش دون إحالة لمصدر؛ أما ضرار في متن الكتاب فقد نسبهم إلى الحشو وهم الذين يرون وجوب الاستثناء في الإيمان وقالوا: من قال إني مؤمن بغير استثناء فهو مبتدع، وبالرغم من نسبة المحققين لهم من الشيعة أو المرجئة، فإن ضرار في متن الكتاب قد جعل مضادًا للشكاك والحشوية؛ المرجئة والشيعة والخوارج.ص74!!

أما عن الأخطاء في تخريج الأحاديث فهي كثيرة، لكن من أكبرها ما جاء في الكتاب: "يقفون في الموقف يوما كان مقداره خمسين ألف سنة فتقوم الشمس على رؤوسهم مقدار قاب رمح فيلحقهم العرق فينادي مناد: أتتواهبون أو تتقاصون؟، فيقولون: ما نصنع بهذه البلايا بل نتواهب فيعفو بعضهم عن بعض..."، ورد التخريج في الهامش هكذا: "أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (62) من حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه ببعضه"!!. ص 70، وقد حاولت أن أرى ما ورد تحت الرقم المشار إليه من أحاديث لكني وجدتها بعيدة جدًّا عما ورد في الكتاب وعما ذكره من اسم للباب في الجنة وصفة نعيمها، وأرقام الأحاديث التي في الباب تبدأ من 5054، والحديث الوارد في هذا الباب يروى هكذا؛ المقداد بن الأسود ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : " تُدنَى الشمسُ يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل " ، قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟!، قال : " فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْويه، ومنهم من يُلجمه العرق إلجاما " ، قال : وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه.

ولا شك أن الحديثين مختلفان تمامًا في المعنى واللفظ! وعلى أية حال فإن المحققين قد بذلا جهدا كبيرًا في إخراج الكتاب إلى النور، لا سيما مع صعوبة قراءة المخطوط الذي وصل إليهم ووجوده بمفرده وتعذُّرِ وجود ثانٍ له يسنده ويوضح ما غمض منه، ولولا إخراجهم هذا الكتاب إلى النور لمكث حبيس الخزائن، مع القيمة العالية له وتقدم زمانه وقيمة موضوعه الذي يناقشه.

هذا عن التحقيق والنشرة التي نشرها الأستاذان الفاضلان، ورغم أن الكتاب قد طبع مرة أخرى في تركيا كما سبق في صدر المقالة ورغم تصحيح كثير من الأخطاء الواردة في الطبعة الأولى إلا أن كثيرًا من الأخطاء أيضًا لا زالت موجودة به، وأخيرًا فكما سبق في المقدمة فإن كتاب ضرار يعتبر من أهم الكتب التي صدرت مؤخرًا؛ نظرًا لمكانة صاحبه ضرار، وأن هذا الكتاب كتب في فترة مبكرة، لكن النشرة التي خرج بها الكتاب لم تخل من عيوبٍ كان تجنبها أفضل وأوجب، والمأمول أن يعاد النظر في تصحيحه وتحقيقه بما يليق به وبصاحبه، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

رامي محمود

طالب دكتوراه

في كلية الإلهيات بجامعة إسطنبول